الخروج من العراق: خطة عملية للانسحاب الآن (5)

سيظل العراقيون يتذكرون الفلوجة كما تذكر الروس ستالينغراد، فهي ايقونة الكفاح الضاري لصد الغزاة

بوش لبريمر: أريد شخصا يكون ممتناً لنا.. رئيس وزراء جديدا لن يطلب منا أن نغادر في يوم الحصول على السيادة

جورج ماكغفرن ووليام بولك

تنشر «القدس العربي» بعض فصول الكتاب الذي سيصدر عن مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت وضعه الباحثان الدكتور جورج ماكغفرن والدكتور وليام بولك، ويقترح الباحثان في كتابهما خطة عملية للانسحاب من العراق «الآن».

كارثة ما بعد الاحتلال

في سياق هذا القنوط المنتشر والمتنامي، بادرت حكومة الولايات المتحدة الى تأسيس نظام جديد في العراق. جاءت الخطوة الأولى سريعاً بتعيين فريق انتقالي برئاسة جنرال امريكي متقاعد هو جَيْ غارنر وكان أحد مقاولي وزارة الدفاع ويعرف في الشرق الأوسط بعلاقاته الوثيقة مع اسرائيل. وفي 24 أيار (مايو) أُبدل وعين مكانه بول بريمر وهو سفير سابق وكان في ذلك الحين من رجال الأعمال، ومن أول أعماله في العراق اصداره قراراً بحل الجيش العراقي. لعل ذلك كان أهم قراراته، ذلك أن المسرحين المهزومين المكتئبين وهم بملابسهم الرثة الممزقة أخذوا معهم، أو نهبوا، أسلحتهم وهم في طريقهم الى بيوتهم. وحين وصلوا وجدوا الدمار في كل مكان. ان عدداً من أقربائهم وأصدقائهم ممن لم يقتلوا كانوا جرحى بحاجة الى عناية طبية غير متوافرة. لم يكن لدى الجميع نقود. وكان الغذاء شحيحاً بحيث ان خطر المجاعة كان موجوداً وواضحاً. وكان الكل يشعر باليأس، فحتى الذين لديهم مهن أساسية كالأطباء لم يكونوا يتقاضون رواتبهم. واضطرب الأمن لأن أفراد الشرطة الذين لم تدفع لهم رواتبهم تركوا أعمالهم. ان مدناً بأسرها لا يوجد فيها رجال لاطفاء الحرائق. وهكذا فان الجنود السابقين، وهم مدفوعون بالجوع أو بالجشع، قاموا بتأليف العصابات وذلك لحماية ما لديهم أو للحصول على ما هم بأمس الحاجة اليه. ان النهب غدا نوعاً من التسوق. ظل الجيش الامريكي لا يفعل سوى مشاهدة التدمير من دون اصدار الأوامر لايقافه. كانت الأضرار بالغة في كل مكان، أما بعضها كالمتحف العراقي الكبير في بغداد فكانت الخسارة فيه خسارة لا تعوض للثقافة العالمية.

لم يجر الاستعداد الكافي لمواجهة الكارثة. كانت قد شكلت لجنة باسم «مستقبل العراق» فوضعت دراسة استغرق اعدادها سنة كاملة، ولكنها اختفت في أروقة وزارة الدفاع ولم تعرض على القادة العسكريين ولا على مسؤولي الحكومة لقراءتها. أما المسؤول من وزارة الخارجية الامريكية الذي أشرف على اعداد الدراسة وهو توماس واريك، فقد تم الوقوف في طريقه من قبل وزارة الدفاع لكي لا يلتحق بادارة بريمر في بغداد، والتي لم يكن فيها من يعرف اللغة العربية معرفة حسنة أو من ذوي الفهم العميق للعراق سوى شخص واحد هو السفير هيوم هوران. لا بل ان أحداً لم يفكر بضرورة اعطاء معلومات كافية لكبار العسكريين بحيث ان عدداً منهم لا يعرف الفرق بين الكردي والعربي، أو بين السُنّي والشيعي، أو الذي لا يفرق بين الشخص الذي يقوم بالتعذيب للسجناء في أبو غريب وبين الذين عذبهم في السجن الذي يديره. أما العراقيون [الذين كانوا في الخارج] من الذين على صلة بالامريكيين فكانوا هم أنفسهم من غير معرفة قريبة بالمجتمع العراقي. كان كثير منهم خارج العراق على مدى عقود من الزمن. لم يقدم أحد منهم نصيحة وافية بالغرض بشأن كيفية تلبية الحاجات العاجلة لشعب جائع أو مشلول أو مشرد، كما ان بعضهم لم يكونوا يتمتعون بالثقة من اخوانهم العراقيين لا بل كانوا ممقوتين منهم كل المقت. لم تكن تلك بداية تبشر بالنجاح. وهي سارت من سيء الى أسوأ.

ان آلاف العراقيين خرجوا الى الشوارع بشكل عفوي من دون وجود من يقودهم في مظاهرات كانت في البداية سلمية في الموصل والفلوجة وبغداد وغيرها من المدن. كانوا يطالبون بالخبز. ولكن الجنود الامريكيين الخائفين، وغير المستعدين، ولا يعرفون من الأمور شيئاً، فتحوا النار عليهم. فالفلوجة التي يقطنها نحو (350) ألف نسمة قد صارت عنواناً للاحتلال، وقتل فيها خمسة عشر من المتظاهرين المحتجين في نيسان (أبريل) 2003 من قبل الجنود الامريكيين، فكانت تلك هي الشرارة التي أشعلت الهجوم الخطير الأول الذي شن على القوات الامريكية. كانت تلك هي بداية التمرد العراقي.

لماذا يهاجم العراقيون من حررهم؟

كان رد الفعل الامريكي هو الاستغراب، فلماذا يهاجم العراقيون الامريكيين؟ لا شك في أنهم يعرفون أن الامريكيين قد حرروهم من الطغيان الشنيع لصدام وكانوا يحاولون كل الجهد لتلبية حاجاتهم. كان تفسير الامريكيين الوحيد هو أن الهجمات لا تكون تمرداً شعبياً وانما هي فقط من عمل المجرمين وقلة من «بقايا البعثيين». ان بعض المحتجين كانوا بالتأكيد من المجرمين، ولكن ثمة مجموعات صغيرة لم تكن لا من هؤلاء ولا من أولئك سرعان ما ائتلفت لتكون جماعات أكبر استجابةً للحوافز القومية، كما ان عمليات النهب قد حلت محلها هجمات تجري لأغراض سياسية. تركزت هذه الهجمات بحنكة متزايدة على أهداف كان المتمردون يأملون كما هو واضح أن تجعل الامريكيين يغادرون البلاد. بحلول منتصف صيف عام 2003 كانت بعض تلك الهجمات واسعة نسبياً، فأنابيب النفط (التي رأى عدد من العراقيين أن الحصول عليها هو هدف الغزو الامريكي) نسفت مرتين في شهر آب (أغسطس). كما ان العراقيين الذين يُظن أنهم من المتعاونين مع الامريكيين جرت مهاجمتهم كذلك. لا بل حتى مقر الأمم المتحدة قد تعرض للنسف.

ولما انتشرت الهجمات وغدت أكثر نظامية، لم يعد كافياً القاء اللوم على «بقايا البعثيين»، فأخذ البحث يجري عن ارهابيين أجانب. وحيث قام كولن باول وزير الخارجية بزيارة الى بغداد في شهر أيلول (سبتمبر) ذاك، قيل له ان ما يصل عدده الى ألفي مقاتل أجنبي كانوا يعملون هناك [(13)]. كانت الاستجابة الامريكية تتلخص في العودة الى العمل العسكري الصرف، على منوال «الصدمة والترويع» تقريباً. وبحلول نهاية عام 2003 أخذت القوات البرية تطالب بضربات جوية، وقد استخدمت هذه قنابل وصواريخ تزن الواحدة منها ألفي باوند، وجرى ذلك للمرة الأولى منذ أن استسلمت القوات المسلحة العراقية في شهر نيسان (أبريل). كانت تلك الأسلحة الثقيلة تسوي المباني بالأرض في حارات سكنية بكاملها. غالباً ما كانت هذه الضربات تتبع بغارات عنيفة جداً من طائرات مسلحة من نوع (AC-130 Speetre) التي كانت تجرح أو تقتل أعداداً كبيرة من الناس بشكل لا مناص منه. كذلك قامت القوات الامريكية باقتلاع البيوت والأشجار التي في محاذاة الشوارع وذلك لجعل زرع الألغام عملية أكثر صعوبة ولمعاقبة المشتبه بهم من المساندين للمتمردين. وعلى الرغم من التهمة التي وجهتها منظمة العفو الدولية ومفادها أن التكتيكات الامريكية تنتهك مواثيق جنيف، فان قائد اللواء 82 المجوقل الذي كان عنصراً رئيسياً في مقاومة التمرد قد قال: «هذه حرب ونحن لن نقوم بشن الحرب مكتوفي الأيدي. وحين نشخص بشكل مؤكد هدفاً للعدو فسنمصي قدماً ونقضي عليه بكل وسيلة متوفرة لدينا». وفي جوابهم من ذلك استخدم المتمردون ما يتوافر لديهم من أسلحة أو ما يستطيعون صنعه بأنفسهم، لا بل انهم استخدموا وسائل بدائية كالعربات التي تجرها الحمير لاطلاق الصواريخ منها، كما انهم أخذوا يصنعون الألغام من القنابل التي أسقطتها الطائرات ولم تنفجر ويقدر وزنها بثلاثة ملايين طن، وكذلك من قذائف المدافع المتروكة. ودخلت كلمة جديدة في قاموس اللغة العسكرية وهي (Improvised Explosive Devices(IED) المؤلفة من الحروف الأولى من الصيغة الانكليزية والتي ترجمتها «معدات التفجير المرتجلة». كانت هذه القذائف من أشد الأسلحة فتكاً التي في أيدي المتمردين. ان أعداداً كبيرة من الهجمات كانت تشن من قبل المسلمين السُنّة، ولكن وبحلول شهر حزيران (يونيو) 2003 أخذ الشيعة يشاركون فيها. وقد قام زعماء الشيعة الدينيون بتحذير السلطات الامريكية سراً قائلين انهم مع تقديرهم لقيام الامريكيين بالاطاحة بصدام حسين، فان الوجود الامريكي في العراق لأكثر من بضعة أشهر لن يكون أمراً مقبولاً من قبل أتباعهم.

تدمير الفلوجة

ان الخوف من ميتة عنيفة كان ولم يزل معششاً في عقول معظم العراقيين، على الأقل أولئك الذين يعيشون في المدن الكبيرة، حيث الحماية التقليدية التي تقدم من أبناء العشيرة والجيران هي الأضعف. والقوات الامريكية لا تحفظ سجلات بعدد المتوفين المدنيين، كما زعم ان سلطة الائتلاف المؤقتة قد أمرت في كانون الأول (ديسمبر) 2003 وزارة الصحة العراقية بالتوقف عن جمع احصاءات عن الاصابات المدنية. ولكن منظمتين انكليزيتين حاولتا القيام بذلك. احداهما هي المجلة الطبية الانكليزية المحترمة جداً والمسماة ذي لانسيت (The Lancet) وقد أجرت مسحاً عاماً يستند الى عينة من 998 بيتاً في 33 مجمعاً سكنياً. جرى ذلك المسح في ظروف صعبة للغاية، ونشر التقرير في تشرين الثاني (نوفمبر) 2004، فوجهت اليه انتقادات كثيرة بحجة أنه مبالغ فيه. ولكنه أُخضع الى تدقيق عسير ومراجعة معمقة قبل نشره. ولم يسبق قبله أن جرى مسح شامل مثله. توصل التقرير الى النتيجة التالية: «ان عدد الوفيات ذات الصلة بغزو العراق واحتلاله من المحتمل أن يبلغ نحو ألف نسمة، وقد يكون أكثر من ذلك بكثير.. وان أكثر من نصف الوفيات التي ذكر أنها سببتها القوات المحتلة هو من النساء والأطفال».

أما المنظمة الثانية والمعروفة باسم Iraq Body Count فقد قدرت الاصابات المدنية بطريقة مختلفة: انها لا تحصي الاصابات الا حين تذكرها اثنتان من وسائل الاعلام في الأقل. لذلك فهي تقول ان الأرقام التي تنشرها هي أقل من الأرقام الحقيقية. ولكنها مع ذلك أرقام مفزعة: لقد كانت من 1 أيار (مايو) 2003 الى 30 نيسان (أبريل) 2004 تبلغ 6,331 اصابة، وكانت من 1 أيار (مايو) 2004 الى 30 نيسان (أبريل) 2005 تبلغ 11,312 اصابة، وكانت من 1 أيار (مايو) 2005 الى 28 شباط (فبراير) 2006 12,617 اصابة. ان هذه الأرقام تعني أن متوسط الاصابات اليومي هو عشرون اصابة في اليوم الواحد في السنة الأولى، و(31) اصابة يومياً في السنة الثانية، و(36) اصابة يومياً في السنة الثالثة غير الكاملة.

من أسباب الموت والمرض الأخرى الأقل اثارة، والذي سيبقى على مدى عقود لأجيال قادمة، هو استخدام القذائف المعدنية ذات اليورانيوم المنضب في القتال ضد الدبابات. كانت هذه القذائف قد استخدمت في حرب عام 1991 وفي غزو عام 2003 معاً.

ان النتائج المستخلصة من دروع الدبابات العراقية المدمرة بواسطة مثل هذه القذائف، تبين أن مستوى الاشعاع فيها يبلغ (2500) مرة أكبر من المستوى المعتاد، والمعروف أن اشعاع الأنقاض لما يقدر بألف طن من اليورانيوم المنضب قد حملته الرياح في كل اتجاه. وقد أظهرت الدراسات التي أجراها اختصاصيون طبيون أن أعداداً كبيرة من الأطفال العراقيين قد أصيبوا بمرض اللوكيميا وغيره من التشويهات الخلقية وذلك بعد حرب 1991.

هناك عدد من المدن العراقية تعتبر بحكم المبادة بفعل العمليات التي جرت ضد المتمردين. ولنضرب مثلاً على مدينة واحدة وهي مدينة الفلوجة. لم يكن يميز الفلوجة في السابق الا القليل، ولكن هناك الكثير مما يميزها الآن. انها تكاد تكون مدمرة بالكامل. وقد وصف أحد المراسلين الزائرين الذي رافق القوات الامريكية، والتي أرسلت لقمع المتمردين هناك، المدينة بقوله انها «لوحة من المباني المدمرة، والسيارات المحروقة، والجوامع المنهارة، وأكداس الأنقاض». وقد غادر نحو مئتي ألف نسمة من سكانها خلال القتال هاربين من المدينة. أما الذين بقوا فيها فقد اعتبروا من المتمردين، فقتل الكثير منهم عشوائياً، لا بل حتى ان سيارات الصليب الأحمر المحملة بالأدوية قد منعت من الوصول الى مستشفى المدينة وكان قد منع الدخول اليه أمام الجرحى.

بلغ القتال حداً من الضراوة بحيث ان الحاكم الامريكي بول بريمر رأى أن الاستمرار في العمليات العسكرية سيؤدي الى انهيار المفاوضات التي كان يجريها لتشكيل مجلس حكم مؤقت في العراق. ولكن قائد مشاة البحرية في الفلوجة مضى قدماً في العملية، كما انه عين ضابطاً كبيراً من البعثيين سابقاً ليساعده في السيطرة على المدينة. قال بريمر انه يظن ان القائد العسكري الامريكي، الجنرال ريكاردو سانشيز (Ricardo Sanchez) ، والذي أراد ايقاف القتال مؤقتاً في الأقل «كان قد استُغفل من قبل قائد مشاة البحرية في الفلوجة». ولئن كان الوضع في المقر مرتبكاً فانه كان على الأرض كارثياً. وقد أفادت الأنباء أن الكثير من اطلاق النار لم يكن تحت السيطرة. وقد نقل أحد تقارير الأخبار نقلاً عن عريف في مشاة البحرية قوله انه رأى زملاءه يقتلون ثلاثين مدنياً عند نقطة تفتيش في يوم واحد فقط. قال ذلك العريف: «اننا نقترف ابادة جماعية». وبحلول شهر كانون الأول (ديسمبر) 2004 كانت أكثر من مئتي بناية قد سويت بالأرض، بحيث ان أسلاك الكهرباء المدفونة فيها قد تلفت الى درجة قال عنها المهندسون الامريكيون انها غير صالحة ويجب ابدالها.

بلغ وزن الذخيرة التي أطلقت حداً يفوق المعتاد. ان جندياً واحداً من مشاة البحرية أطلق خمساً وثلاثين قذيفة مدفعية ثقيلة أو أكثر، اضافة الى ثلاثين ألف رشقة من البنادق والرشاشات ضد قناص واحد كان يطلق النار. أما الأكثر تدميراً من القذائف الثقيلة والذخائر «الخفيفة» فهو السلاح الكيميائي المحرم دولياً والذي استخدمته القوات الامريكية في المعارك بحيث قال أحد العراقيين «ان ذلك تذكير أسود بالغازات التي أطلقها صدام حسين على الأكراد في 1988». ذلك السلاح الكيميائي هو الفوسفور الأبيض الذي يحرق جميع الموجودين في مدى مئة وخمسين متراً بحيث تصبح جلود الضحايا بنية اللون. ان الفوسفور الأبيض محرم دولياً، وجرى نفي استخدامه في البداية، ثم أقر ناطق عسكري بأنه قد استخدم ولكن فقط للاضاءة الليلية. غير أن صوراً وثائقية التقطها أحد الايطاليين تظهر واقعاً مختلفاً ومريعاً جداً: فبعض الضحايا راقدون في أسرتهم وأجسادهم محروقة بالتمام.. ان عدد الاصابات المدنية غير معروف، ولكن المعتقد هو أنه يبلغ الآلاف. لقد قيل للقوات الامريكية ان مدينة الفلوجة هي «منطقة حرة للنيران» وان أي شخص، من أي عمر أو جنس كان، هو هدف يجب اطلاق النار عليه. أما القائد الامريكي الذي هو برتبة جنرال فقد قال انه لا يعلم عن وجود أية اصابات مدنية.

أظهر الناجون غضبهم أمام الصحافيين، وكانوا ندرة نادرة، ممن كانوا يرافقون القوات وذلك بأن كانوا يصرخون: «الامريكان هم الارهابيون. انهم يقتلون باستمرار النساء والأطفال العراقيين.. الموت للامريكان». وقال أحدهم: «ليس لدينا دبابات ولا طائرات نفاثة.. سلاحنا الوحيد هو القرآن». سيظل العراقيون يتذكرون الفلوجة كما تذكر الروس ستالينغراد، فهي ايقونة الكفاح المستقتل لصد الغزاة. ومما لا يمكن تصديقه أن بعض الامريكيين في الأقل كانوا في غفلة عن الألم الذي سببوه، ففي احدى مراحل القتال قال قائد اللواء 82 المجوقل: «نظن أننا سنرى اليوم الذي نلعب فيه معهم كرة القدم [ويعني سكان الفلوجة]. ولكن لن يكون ذلك خلال أسابيع».

لم تكن الفلوجة هي المدينة العراقية الوحيدة التي دمرت بحثاً عن الأمن. ان قائمة المستوطنات المدمرة هي في الواقع طويلة. ويحسن بالامريكيين أن يتذكروا الملاحظة المريرة التي أسندها المؤرخ الروماني تاسيتوس (Tacitus) الى المتمرد بريتنز (Britons) وهو قائد أعداء روما الذي قال: «ان الرومان يخلقون خراباً ويسمونه سلاماً».

انهيار النظام

ان السلام أو الاستقرار على أقل تقدير هو ضحية حرب العصابات دائماً، لذا فقد شهد العراق بالطبع انهياراً في النظام العام، فبعد أن بلغ معدل البطالة ما يقدر بين (30) و(50) في المئة (بحسب المناطق المختلفة)، وهو معدل يفوق كثيراً ما يمكن أن يتحمله أي مجتمع من المجتمعات، غدا عدد كبير من العراقيين في عداد اليائسين المستقتلين الذين لا يردعهم رادع. ونتيجة لذلك تصاعد ارتكاب الجرائم الى مستويات غير مسبوقة، وان كان نزلاء السجون قد ارتفع الى نحو ستة عشر ألف سجين عند تاريخ كتابة هذا الكتاب. وبالنظر الى أن معظم العراقيين يحملون السلاح، فالجرائم بمعظمها تكون مصحوبة عند ارتكابها باستخدام العنف. وقد جاء على لسان منظمة العفو الدولية في 9 آذار (مارس) 2006 «ان الأمر لم يقتصر فقط على فشل الحكومة العراقية بتوفير الحد الأدنى من الحماية لمواطنيها، بل انها اتبعت سياسة الاعتقال والتعذيب للأبرياء من الرجال والنساء. ان عدم معاقبة الذين اقترفوا التعذيب قد فاقم من تدهور حكم القانون».

كانت كل من الحكومة البريطانية أيام حكمها للعراق سابقاً والحكومة الامريكية اليوم قد زودت العراق بدستور. ان الدستور الانتقالي [أي قانون ادارة الدولة للمرحلة الانتقالية] الذي كتبه الامريكيون كانت قد تمت المصادقة عليه بتاريخ 8 آذار (مارس) 2004 من قبل مجلس الحكم العراقي المعين من الامريكيين. كان ذلك الدستور قد كتب سراً من قبل قانونيين امريكيين من مشاركة من العراقيين. مع هذا فان وزير الخارجية الامريكي كولن باول قد أثنى عليه قائلاً: «انه انجاز عظيم»، كما سماه رئيس الوزراء البريطاني توني بلير بأنه «حجر الأساس» لعراق ديمقراطي. وقبل ثمانين سنة بالضبط، أي في عام 1924، قام الانكليز بالاشراف على مجموعة من العراقيين المرضي عنهم للقيام بعمل مشابه تماماً. وكما زعم الامريكيون في عام 2004 كذلك كان الانكليز قد أعلنوا في عام 1924 أن الدستور هو بشير الاستقلال. بيد أن العراقيين يتذكرون أن بريطانيا استمرت وبشكل مباشر أو غير مباشر بحكم العراق لمدة أربع وثلاثين عاماً تالية، ويسألون كم من السنين يا ترى ستقوم امريكا فعلياً بحكم بلادهم؟

ثمة انطباع واحد يبدو واضحاً: فحين يفكر أبناء الشعب العراقي ببريطانيا والولايات المتحدة الامريكية فهم لا يفكرون بالديمقراطية، وانما تتحرك أذهانهم غضباً وحزناً بشأن الدمار الذي حاق ببلادهم بفعل الأجانب الغزاة.

يقول بول بريمر في كتابه المعنون: سنة قضيتها في العراق متحدثاً عن جهوده لاختيار رئيس وزراء للعراق، بأنه رفض المرشح الذي قدمه وسيط الأمم المتحدة الأخضر الابراهيمي، وهو وزير خارجية جزائري سابق. أراد الابراهيمي من بريمر أن يختار حسين الشهرستاني، وهو عالم نووي درس في امريكا وقد سجنه صدام حسين عام 1979 لمدة أحد عشر عاماً لرفضه التعاون مع برنامج صدام حسين السري لصناعة السلاح. هرب حسين الشهرستاني من السجن في عام 1991 وقضى عدداً من السنوات في العمل في الخارج ضد صدام. وعند عودته الى العراق بعد الغزو في عام 2003، أسس جمعية خيرية خاصة لمساعدة العوائل التي تضررت من الحرب. لذا وجده الابراهيمي مرشحاً لائقاً جداً، ولكن الشهرستاني، شأنه شأن المرجع الشيعي آية الله السيستاني، كان قد رفض اللقاء بمسؤولي سلطة الائتلاف المؤقتة. وحين نقل بريمر ذلك الى الرئيس بوش، فان هذا وكما كتب بريمر، توجه فوراً الى صلب المسألة كما كان يراها وهي «ان المهم أن نحصل على شخص يكون مستعداً للنهوض لشكر الشعب الامريكي على تضحياته في تحرير العراق. وأنا لا أتوقع أن نختار رجلاً يقول: نعم، فيبصم على ما نريد. ولكني أريد على أقل تقدير، شخصاً يكون ممتناً لنا.. علينا أن نتأكد أن رئيس الوزراء الجديد لن يطلب منا أن نغادر في يوم الحصول على السيادة». وقد قام بريمر بتذكير الرئيس الامريكي وكولن باول ورامسفيلد ورايس «الى أي درجة من عدم الشعبية قد آل اليه الائتلاف الذي يتعرض الى ردح متواصل من الدعاية العربية ويخضع الى مخاوف متزايدة تتعلق بالأمن. ولعل الانتهاء الرسمي للاحتلال سيساعد في الحصول على قبول أكبر بالحاجة الى قوات الائتلاف». ولكن بوش لم يتزحزح. وتم تجاوز الشهرستاني. ومن ثم عين بريمر الدكتور اياد علاوي الذي وعد أن تكون أولى أولوياته مسألة «الأمن»، وجرى هذا التعيين على الرغم من معارضة الأخضر الابراهيمي على أساس العلاقة الطويلة التي تربط علاوي بوكالة الاستخبارات الامريكية.

بوش يتحدث عن«فئة» وبريمر عن ازمة

في عيد الفصح عام 2004 ألقى الرئيس بوش خطاباً بالراديو ندد فيه «بفئة صغيرة تحاول أن تخرج الديمقراطية العراقية عن مسارها ثم تستولي على السلطة». ولا شك في أن عبارة «فئة صغيرة» هذه قد استعصت على البلع في بلعوم بريمر؛ ففي ذلك الوقت كتب هذا الأخير يقول: «ان الحالة الأمنية العامة استمرت بالتدهور. فقد شن المتمردون هجمات على أنابيب النفط، وبذلك حرمت الحكومة من الايرادات النفطية. وكانت الضربات تتوالى على قوافلنا العسكرية الناقلة للتجهيزات حتى بدا الأمر في 17 نيسان (أبريل) وكأن علي أن أقرر توزيع الطعام بالبطاقات في سلطة الائتلاف المؤقتة. قفز عدد الهجمات قفزة كبيرة في منطقة أبو غريب الواقعة غربي بغداد والتي تسكنها أغلبية سُنّية، كما ان التقارير الاستخباراتية أفادت بوجود خطط لحدوث انتفاضات شديدة في مدن سُنّية أخرى مثل بيجي وتكريت والموصل». ومن الواضح أن من الصعب التوفيق بين كلام الرئيس بوش وكلام بريمر.

في هذه الأثناء استمرت حالة الشعب العراقي بالتدهور. وقد كتب أحد مراسلي جريدة «واشنطن بوست» في تشرين الثاني (نوفمبر) 2004 يقول: «ان سوء التغذية الحاد بين صغار الأطفال، وكان شديداً خلال نظام العقوبات، قد تضاعف منذ قادت الولايات المتحدة غزو البلاد قبل عشرين شهراً؛ فمعدل سوء التغذية الآن هو أعلى من معدله في هايتي». وأشارت تلك المقالة الى أن (60) في المئة من سكان الأرياف و(20) في المئة من سكان المدن لا يحصلون الا على مياه ملوثة وأن المجاري لم تزل في حالة يرثى لها. وقال كاتب المقالة المذكورة: ان السكان يقولون ان حكومة صدام أصلحت الكهرباء خلال شهرين بعد انتهاء حرب 1991، ثم نقل الكاتب عن وزير التخطيط العراقي قوله: «مع أن نسبة كبيرة في العراق مربوطة بشبكات الماء والكهرباء والمجاري، الا أن الامدادات غير مستقرة الى حد كبير بحيث لا تحدث فارقاً حسناً في حياتهم». والواقع أن نحو (70) في المئة من العراقيين لم يزالوا غير قادرين على الحصول على ماء نظيف للشرب والاستحمام. أما الثلاثون في المئة الباقون فان عدداً منهم من الذين يحصلون على الماء النظيف يترتب عليهم لهذا الغرض أن يسيروا الى مصادره التي تبعد ربع ساعة مشياً لملء الأواني وحملها في أثناء العودة.

وبما أن الكهرباء تعمل مدة قصيرة فقط لا تتجاوز بضع ساعات يومياً فقد تعطلت خدمات كثيرة كمعالجة النفايات وعمليات التجميد والتبريد، وهي من الضروريات في منطقة تبلغ فيها درجة الحرارة في الصيف أكثر من (120) درجة فهرنهايت (أي خمسين درجة سنتغريد). وبما أن المعامل وغيرها لا تستطيع العمل الا جزءاً من اليوم، هذا اذا عملت، فهي بالتالي لا تستخدم عملاً بمثل الأعداد السابقة، ما أدى الى زيادة نسبة البطالة الى (40)، في المئة وهي ترتفع الى (50) في المئة في بعض المناطق. وكما قال وزير الكهرباء العراقي: «حين تفقد البلاد الكهرباء فانها تتحطم».

ان توليد الكهرباء يعتمد بالدرجة الأساسية على النفط. وكان انتاج النفط متناقصاً الى حدود أدنى فأدنى. وفي كانون الأول (ديسمبر) 2005 وكانون الثاني (يناير) 2006 كان هذا الانتاج قد هبط من معدل ما قبل الحرب البالغ مليونين ونصف المليون برميل في اليوم الى أقل من نصف ذلك، أي نحو مليون ومائة ألف برميل يومياً. ولم تكن المسألة محصورة فقط بهبوط الانتاج وبأن زيادته كثيراً أمر غير محتمل في المستقبل المنظور (ويقدر ذلك بعشر سنوات بحسب التنبؤ السائد)، بل يضاف اليها أن سوء ادامة الحقول النفطية أدى الى حدوث أضرار طويلة الأمد فيها بسبب الطريقة التي استغلت بها تلك الحقول، ما أدى بدوره الى تقليل مقدار الاحتياطي فيها والقابل للاستخراج في المستقبل. وهكذا كان العراق يخسر ايراداته الحالية، وليس هذا فقط بل يخسر كذلك موجوداته التي يعتمد عليها في المدى البعيد.

كانت الاستجابة التي أقدم عليها الامريكيون تتلخص باستقدام شركات نفط بريطانية وامريكية. كانت المفاوضات مع هذه الشركات قد بدأت في واشنطن حتى قبل الغزو، واستمرت في بغداد بواسطة سلطة الائتلاف المؤقتة قبل منح «السيادة» العراقية بوقت غير قصير. وأسفرت النتيجة عن مقاولات تسمى «اتفاقيات تقاسم الانتاج» لمدة تبلغ خمساً وعشرين سنة أو حتى أربعين، وبموجبها تقوم الشركات الامريكية والانكليزية التي عقدت معها المقاولات التي كانت في صالحها كثيراً بتقديم رأس المال اللازم للبدء بانتاج النفط العراقي. كان ذلك في الظاهر يبدو حلاً بارعاً بل حتى مفيداً، في الأقل للسلطات الامريكية. ولكن الخبراء الدوليين المستقلين أشاروا الى أن تلك الاتفاقيات قد تكلف العراق ما يصل الى مئتي مليار دولار من الايرادات[(15)]. ان هذه الخطوة لتسليم احتياطيات النفط في العراق الى الشركات الامريكية والبريطانية هي، بالنسبة الى معظم العراقيين، بل الى عدد من الأجانب أيضاً، بمثابة تأكيد بأن غرض الغزو الحقيقي هو ضمان حصول الامريكيين على نفط العراق الخفيف والرخيص الانتاج. انهم لمزيد من التأكيد، يشيرون الى حقيقة مفادها أن المبنى الحكومي الوحيد الذي جرت حمايته تماماً من قبل الجنود الامريكيين في بداية الاحتلال لمنع نهبه في عام 2003، كان مبنى وزارة النفط التي تحوي دراسات جيولوجية مفصلة عن حقول النفط العراقية.

ثمة علامات أن الدوائر العسكرية الامريكية قد غدت مستميتة أو تكاد لكونها مدفوعة الى عمل ما تُعَد الجيوش كلها لعمله: ألا وهو استخدام القوة، وهذا على الرغم من المحاولات التي بذلت لغرض الانهماك في برامج النشاط الاجتماعي التي تُستلهم من تجربة الحرب الفييتنامية. ان القوات الامريكية كانت، في وقت كتابة هذا الكتاب، قد عادت الى شن أعمال عسكرية واسعة تشمل آلاف الجنود والدبابات والطائرات ضد مناطق يشتبه بأنها تؤوي المتمردين. ان تلك القوات قامت كذلك بما ينظر اليه العراقيون على أنه هجوم على ثقافتهم وديانتهم كالهجوم الذي شن يوم 28 آذار (مارس) 2006، على مسجد للشيعة في بغداد حيث قتل سبعة وثلاثون من المصلين الذين كانوا يؤدون صلاة المغرب. وقد قال وزير الداخلية العراقي، وهو شيعي انما هو على أية حال وزير معين من قبل امريكا، معلقاً على الحادث في التلفزيون العراقي: «ان دخول المسجد وقتل المصلين هو انتهاك فظيع». وقال وزير عراقي آخر متكهناً «أظن أننا سنتخذ موقفاً حازماً ضد القوات الامريكية بسبب هذه الجريمة». وعرض التلفزيون صوراً بثتها المحطة طوال الليل لجثث ملقاة في برك من الدماء على أرض الجامع.

هناك علامات متزايدة تدل على أن هذه الأعمال تسبب عداء يتفشى في المجتمع ليس فقط في أوساط العرب السُنّة، بل كذلك في أوساط الشيعة الذين تفضلهم امريكا على غيرهم.

كان رئيس الجمهورية السابق بوش الأب، وهو يبدي انطباعاته عن حرب الخليج لعام 1990، قد أوضح لماذا لم يوافق على السياسة التي اتبعها ابنه في ما بعد، فكتب يقول: «لو أننا كنا سرنا على طريق الغزو لكانت الولايات المتحدة لم تزل دولة احتلال في بلد معاد بشكل لدود». ان هذا هو ما حصل بالضبط. فحتى ريتشارد بيرل، وهو أحد المهندسين الرئيسيين للغزو الامريكي والاطاحة بصدام، قد اعترف في نقاش جرى حديثاً مع رئيس اللجنة الوطنية الديمقراطية هاورد دين بأن الاحتلال العسكري الامريكي للعراق «ربما كان خطأً». كما ان زلماي خليل زاد، السفير الامريكي في العراق، وأحد كبار المحافظين الجدد المناصرين للغزو الامريكي، أقر لمراسل من جريدة «لوس أنجلوس تايمز» في 8 آذار (مارس) 2006 قائلاً: «لقد فتحنا «الصندوق السحري»، ففتحنا الباب للشرور، والمسألة الآن هي: ما هو الطريق الى الأمام؟».

ان جندياً واحداً من مشاة البحرية أطلق خمسا وثلاثين قذيفة مدفعية ثقيلة أو أكثر، اضافة الى ثلاثين ألف رشقة من البنادق والرشاشات ضد قناص واحد كان يطلق النار. أما الأكثر تدميراً من القذائف الثقيلة والذخائر «الخفيفة» فهو السلاح الكيميائي المحرم دولياً والذي استخدمته القوات الامريكية في المعارك .. ذلك السلاح الكيميائي هو الفوسفور الأبيض الذي يحرق جميع الموجودين في مدى مئة وخمسين متراً بحيث تصبح جلود الضحايا بنية اللون...